

جماليات الصمت في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر

"جسر للبوح وآخر للحنين" لزهور ونيسي أنموذجا

Aesthetics of silence in contemporary Algerian narrative discourse

"Bridge of Revelation and Another of Nostalgia" by Zahour weNaisi Adala

د. مكّي مريم

mekki3aycha@gmail.com

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

ملخص:

يهدف البحث إلى مقارنة ظاهرة الصمت في الخطاب الروائي الجزائري المعاصرة ذلك أن المبدع يسعى مع ولادة كل إبداع إلى تطوير اللغة واحتضان مفرداتها وتراكيبها والاستنجا بمعانيها لخدمة إبداعه بل ويتعدى ذلك في محاولة منه إلى استمالة القارئ وإثارته بمختلف الأشكال الأمر الذي يدفعه إلى توظيف مختلف الآليات بُغية تحقيق هدفه ومن هنا تشكل الصمت في مقابل الكلام واحتلّ موقعه من تلك الثنائية الضدية التي تتكامل مع بعضها البعض داخل الخطاب الأدبي، فإذا كان الكلام هو نسيج الخطاب أو هو الخطاب ذاته فلا بد للصمت أن يتغلغل في تلك الفجوات التي تثير القارئ، فكما تشكل اللغة البؤرة والأداة فلصمت مكانته ودوره في تشكيل جمالية الخطاب وفي إثارة المتلقي سواءً إن استثمره المبدع عن قصد أي اختياريا فنجدّه يُحضر هذا ويُغيّب آخر يستنطق هذا ويُسكت ذاك وذلك لضرورة فنية استدعتها طبيعة العمل أو اضطراريا، متخذاً منه وسيلة لجذب القارئ ليملاً تلك الفراغات أو الفجوات التي تؤدي إلى لذة القراءة.

الكلمات المفتاحية: الصمت، الرواية، الخطاب، الكلام، جماليات.

Abstract:

The research aims to approach the phenomenon of silence in the contemporary Algerian novelist discourse, because the creator seeks, with the birth of every creativity, to adapt the language, embrace its vocabulary and structures, and invoke its meanings to serve his creativity, and even go beyond that in an attempt to win the reader and provoke him in various forms, which

leads him to employ various mechanisms in order to achieve Its goal and hence the formation of silence in contrast to speech and occupied its position from that antagonistic dualism that integrates with each other within the literary discourse. So his position and his role in shaping the aesthetics of the discourse and in excite the recipient, whether if the creator invests it intentionally, voluntarily, finds him present this and absent another questioning this and silencing that, and that is due to a technical necessity called by the nature of the work or compulsion, taking it as a way to attract the reader to fill those voids or gaps that lead to pleasure reading.

Keywords: Silence, novel, speech, language, aesthetics.

1. مقدمة:

اهتم الروائي باللغة في إنتاجه فتوجه إلى جمالياتها وشعريتها إلى أن لفت الصمت الانتباه فحظي هو الآخر بالاهتمام بما زاده للإبداع من غموض يفسح المجال أمام القارئ للتأويل بغية فك شفراته وتحليل دلالاته، لهذا احتل مكانته في الأعمال الإبداعية كخاصية فنية لها تأثيرها الدلالي والجمالي، فاتجه الكاتب إلى تضمين أعماله لهذه الظاهرة التي تعددت أشكالها وتقنيات توظيفها، كوسيلة لها دورها في تشكيل الخطاب وفي استقطاب القارئ هذا الأخير الذي يجد ظالته من خلال خطاب الصمت الذي يفسح المجال أمامه ويوفر له حرية التلقي، بل ويتعدى ذلك إلى المشاركة في إنتاج المعنى.

يحتضن الخطاب الروائي مختلف الأشكال والحيل الفنية والتقنيات السردية يتوسل بها الكاتب شعرية الإبداع وجمالياته، إلا أن الكلام قد يخون الكاتب في كثير من الأحيان فيلجأ إلى الصمت، إما عجزاً منه أو رغبة منه لجذب القارئ بتلك الشفرات والفراغات والبياضات التي قد تكون أشد وقعاً على القارئ من الكلام نفسه وبهذا يستنجد الكاتب بلغة الصمت لتشغل مكانة في إبداعه، فيحرك بالصمت ما لم تستطع اللغة أن تحركه.

من هنا يمكننا أن نلمس الصمت كآلية استراتيجية في الخطاب الروائي له تأثيره باعتباره خاصية تقع خارج اللغة لكن لا تتحقق إلا من خلال اللغة، ومن خلال تلك التقنيات التي يوظفها المبدع من أجل استمالة القارئ وتحقيق لذة القراءة، فكما غني الأدباء بالحوار في متونهم الروائية فرض الصمت حضوره بأشكال متنوعة تتخلل مواطن الإبداع، من هنا تولد اهتمامنا بالصمت في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر واعتمدنا على رواية "جسر للروح وآخر للحنين" لزهور ونيسي، كنموذج نقارب من خلاله خطاب الصمت، وهذا رغبة منا في تبيان مدى وعي الروائي الجزائري بالتقنيات والآليات الحديثة ومواكبته لتلك التطورات والتغيرات التي تشهدها الساحة

الابداعية، فإذا قطعت الرواية المعاصرة أشواطاً من التطور، فإن الرواية الجزائرية لم تغفل عن هذا الأمر ولم تتفوق في تلك الإيديولوجيات بل سعت إلى ملامسة التجديد عبر ثنائياها، لهذا سعيها إلى دراسة الصمت في هذه الرواية على اعتبار أن خطاب الصمت رغم التنظيرات المتأصلة في التراث العربي من ناحية المفهوم، إلا أن الاهتمام به كظاهرة لها تأثيرها في الخطاب السردي هو اهتمام حديث.

قبل الخوض في مغامرة تحلي الصمت في الخطاب الروائي، يجدر بنا أولاً مساءلة دلالات الصمت والمرجعيات النظرية التي تأسس عليها قديمة كانت أم حديثة ثم الخوض في إشكالية التقنيات والآليات التي احتضن بها السرد خطاب الصمت، ومدى وعي الروائي الجزائري بهذه الظاهرة؟

2. الصمت في التراث اللغوي والبلاغي عند العرب:

اهتمت المعاجم اللغوية بدلالة المصطلح ومفهومه حيث جاء في لسان العرب "صمت يصمُ صَمْتًا وَصُمْتُ وَصُمُوتًا وَصُمَاتًا، وَأَصْمَتَ: أَطَالَ السُّكُوتَ، وَالتَّصْمِيْتُ: التَّسْكِيْتُ والتَّصْمِيْتُ أَيْضًا السُّكُوتُ، وَرَجُلٌ صَمِيْتُ أَيْ سَكِيْتُ"¹.

وجاء في القاموس المحيط "الصَّمْتُ والصُّمُوتُ والصُّمَاتُ: السُّكُوتُ كَالْإِصْمَاتِ والتَّصْمِيْتُ، وَرَمَاهُ بِصُمَاتِهِ، أَيْ بِمَا صَمَتَ مِنْهُ، وَأَصْمَتَهُ وَصَمَّتَهُ: أَسَكَّتَهُ"².

وقال الكفوي "والصمت إمساك عن قوله الباطل دون الحق"³.

تتعدد المعاني اللغوية للصمت في المعاجم إلا أنها تدور في مجملها حول السكوت والتوقف عن الكلام مهما كان نوعه، ويأتي ضد الكلام والنطق ليدل على الهدوء ويفسح المجال للسكينة.

نال الصمت الحظوة من لدن الدراسات اللغوية والبلاغية القديمة سواء إن كان بمصطلحات مقابلة له كالحذف والإيجاز وغيرها من الألفاظ التي عُنت بها العبقرية العربية، وعقدت لها الأبواب من الدراسة والبحث

1 ابن منظور: لسان العرب، ج1، ط1، المطبعة الكبرى المصرية، مصر، 1300هـ، ص359.

2 الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005، ص155.

3 أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكليات معجم في المصطلحات والفرق اللغوية، أعده وفهرسه: عدنان درويش/محمد المصري، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، 1419هـ/1998م، ص509.

وجعلوه شرط من شروط البلاغة والفصاحة مثل ما جاء في "سر الفصاحة" لسنان الخفاجي: "ومن شروط الفصاحة والبلاغة الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام، حتى يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة. وهذا باب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عند أكثر الناس..."⁴ فقد استحسّن الخفاجي ذلك الأثر الذي يخلقه الإيجاز والحذف وجعله دلالة على البلاغة، بما يخلقه من معاني إيجابية تحت ألفاظ معبرة بقلتها لا بكثرتها.

وقد عدّ ابن المقفع الصمت من معاني البلاغة بقوله: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت... ومنها ما يكون جواباً"⁵. فقد خصّ علماء العربية أبواب ومؤلفات للصمت وللتفاضل بينه وبين الكلام، فكلما وُجد الكلام وُجد الصمت، هذه المقابلة التي تتحقق البلاغة والفصاحة من خلالها.

ونجد الجاحظ يشيد بأهمية الصمت بقوله: "اعلم أن الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة موضعه، وذاك صمتك عند من يعلم أنك لم تصمت عنه عيا، ولا رهبة. فليزدك في الصمت رغبة ما ترى من كثرة فضائح المتكلمين في غير الفرص وهذر من أطلق لسانه بغير حجة"⁶، فالجاحظ أعطى للصمت قيمته ما لم يدل على العجز، فإن كان في موضعه فهو أبلغ من كثرة الكلام، وبهذا يستحسن الصمت حيناً والكلام حيناً آخر شرط مراعاة مقام القول.

للصمت أهمية كبيرة عند علماء البلاغة فهو "باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفاة، أزيد للإفاة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تُن" ⁷ فالصمت هنا هو تلك العملية العقلية التي تأتي عن وعي من المتكلم وتخضع لإرادته، فهو يرتبط بالاختيار، لا يصدر عن العجز في التعبير، أو عن نقص في القاموس اللغوي الفردي بل هو عملية فنية يتخلل الكلام بهدف ترك أثر فيه.

يدل هذا أن للصمت أهمية في المنظومة اللغوية شأنه شأن الكلام فهو لا يخل بالخطاب بل بالعكس هو مشحون بدلالات إيجابية تصنع شعرة الخطاب وجماليته، ويحمل "وظيفة تفاعلية ولا ينتهي به الحدث الاتصالي، بل

4 ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، شرحه وصححه عبد المتعال الصعيدي، مطبعة علي صبيح وأولاده، القاهرة، 1969، ص 197.

5 الجاحظ: البيان والتبيين، تح عبد السلام محمد هارون، ج 1، دار الفكر، ص 166.

6 الجاحظ: رسائل الجاحظ، تح عبد السلام هارون، ج 1، القاهرة، مصر، 1964، ص 113.

7 عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإجاز، تح محمود محمد شاكر، ط 5، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2004، ص 146.

ربما حمل في طياته رسائل غير لفظية تفوق أحيانا في قوتها أبلغ الكلمات. ولهذا فهو فن لا يدركه إلا البلغاء والحكماء⁸ فالصمت من هذا المنظور هو ظاهرة فنية قد تكون أبلغ وأقوى من الكلام وهو عنصر حيوي في العملية التواصلية.

3. الصمت في الدراسات الحديثة:

يحاول الدرس الحديث التطوير من مختلف الآليات والإجراءات التي تشتغل على كل الخطابات بما في ذلك الخطاب الأدبي أو الروائي على وجه الخصوص، لهذا نلاحظ اهتمام الباحثين بمظاهر "الصمت" وتجلياته، فإن كان المفهوم متأصل الوجود، إلا أن النظر إليه كظاهرة لها تأثيرها في الخطاب لم تلق الاهتمام إلا في العصر الحديث، حيث نشهد تلك المقالات التي تهتم بهذا المجال مثل "مدخل إلى الصمت في النص السردي" للدكتور محي الدين حمدي، و"الصمت في الخطاب القصصي عند عبد الله أبو هيف" لعمار بشيري و "قراءة في صخب الصمت في رواية بحر الصمت لياسمينه صالح" لباية غيبوب وغيرها من الدراسات العربية التي حاولت البحث في هذا المجال، وهي بداية مبشرة لبحوث موسعة حول خطاب الصمت في الدرس العربي الحديث، على غرار الدراسة التي قدّمها بيار فان هافل في كتابه "parole mot silence pour une poétique de silence" والذي يعرف الصمت بأنه "عدم تحقق لعملية تلفظ يمكنها أو يجب عليها أن تكون في وضعية معينة"⁹ فالصمت عند هافل تلفظ غائب أو بالغياب (un acte énonciatif in absentia) وهو بخلاف النطق والكتابة المتمثلين في الصوت والخط لا ينشئ ملفوظا لسانيا (Un énoncé linguistique) وإنما يُدرك وجوده بعلامات في النص تشير إلى وجوده مثل الفراغ (Vide) والغياب (Absence) والفجوة في الكتابة (interstices de l'écrit) وتخفيض حجم المقول...¹⁰

فالملاحظ من خلال هذا المفهوم أن الصمت يتحقق من خلال الغياب بواسطة تلك الفراغات أو الفجوات الموجودة في النص، فهذه الأخيرة هي التي تحيل على المسكوت عنه مما يثير المتلقي، الأمر الذي يخلق

⁸ كمال سعد أبو المعاطي "الوظيفة التفاعلية للصمت" مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الانسانية، مج24، ص167.

⁹ Pierre Van Den Heuvel, parole mot silence, compléments théoriques, chapitre2, librairie José corti, 1985, p67.

Ibid,p72. 10

التفاعل ويدفع بالمتلقي إلى عملية ملأ تلك الفجوات، وبالتالي يصبح للصمت الدور في إثارة المتلقي وتحقيق لذة القراءة.

يقع الصمت في الخطاب من خلال اللغة بواسطة تلك القرائن أو المؤشرات التي تدل عليه فيتحقق التعالق الدلالي في ذهن المتلقي من أجل توليد دلالات، أو التعبير عن الضمني والكامن وراء تلك المؤشرات، ذلك لأن الصمت "قوامه الفراغات الموجودة في النص، تتضمن بياضا، أو تشطيبا، أو اختزالات، أو جمل تنتهي بنقاط تنابع؛ وهو يحيل في النص على المسكوت عنه والضمني، أو ماهو من الوعي الباطني أثناء فعل التلفظ"¹¹ يسكت الخطاب فاسحا المجال أمام الصمت، أو يترك المبدع المجال أمام القارئ ليشترك في عملية بناء جمالية النص هذه الجمالية التي لا تتحقق من خلال اللغة فقط، ولكن من خلال عملية التبادل بين الكلام والصمت لأن "الصمت واللغة ليسا ضدّين، فكلاهما نشيط ودال والخطاب لا وجود له من دون علاقتهما المتبادلة"¹² فهذه العلاقة الضدية تحقق التكامل والتبادل لتوليد تلك الدلالة أو تلك اللحظة المفقودة أو المغيّبة، عن قصد أو دون قصد؛ صمت اضطراري أو اختياري كما صنفه " بيار فان هافل " إلى الصمت الاختياري (Le silence volontaire) والصمت الاضطراري (Le silence involontaire)¹³.

يُثني آيزر على الصمت في الخطاب ويعده بأنه العامل الذي يجذب "القارئ داخل الأحداث ويُلزِم بإضافة ما يُلمح إليه فيها من معنى من خلال ما لم يذكر، وما يُذكر لا يتخذ دلالة إلا كمرجع لما لم يذكر إن المعاني الضمنية وليس التصريحات هي التي تعطي شكلا ووزنا للمعنى، ولكن مثلما يتولد الشيء غير المذكور في مخيلة القارئ، فإن ما يذكر يتوسع ليأخذ دلالة أكبر مما يكون قد افترض سابقا"¹⁴، وبهذا يعد الصمت نقطة الالتقاء والتفاعل بين القارئ والنص، والمعاني الضمنية تساهم في إثراء النص، وبعد الكلام مرجعا يساهم في عملية بناء دلالة الصمت، ومن هنا فإن علاقة الصمت بالكلام هي علاقة تكاملية تبادلية يعمل كل منهما على إثراء معاني الآخر.

11 بخولة بن الدين "بلاغة الصمت وأسلوب الحذف في الخطاب القرآني دراسة نصية" مجلة التراث، ع01، مج10، أبريل 2020، ص396.

12 دافيد لوبروطون: الصمت لغة المعنى والوجود، ت: فريد الزاهي، ط1، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، 2019، ص22.

13 ينظر: Pierre Van Den Heuvel.

14 فولفغانغ إيزر: فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، ت: حميد حميداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، الدار البيضاء، 1995، ص100.

إن الصمت عبارة عن تلك المعاني الغائبة، التي لا يكتمل الخطاب إلا من خلال استحضارها في ذهن المتلقي، الذي يقوم ببناء تلك الدلالة المفقودة بواسطة الإشارات والشفرات في النص، فالصمت "يثبت حضوره باللغة نفسها، ولكن باخزائها عن طريق الحذف والإيجاز أو عن طريق إشارة من النص/الكلام إلى شيء آخر لم يصرح به، وإنما سكوت عنه، والذي أبانه وأنطقه هو النص الأول..."¹⁵ وبالتالي تعتبر اللغة شرط أساسي لحدوث الصمت الذي تدور معانيه حول الغياب والسكوت والغموض ويتم استحضارها عن طريق تلك الروابط التي تعتبر صلة وصل بين القارئ والخطاب، لذا يمكننا القول إن الصمت هو الوسيلة التي تتحقق من خلالها العملية التواصلية التفاعلية في النص، وبهذا يصبح للقارئ الدور في عملية بناء الدلالة بواسطة خطاب الصمت الذي يعمل كحافز يجذب القارئ ويشد انتباهه.

4. جماليات الصمت في رواية "جسر للبوح وآخر للحنين":

يتوزع الصمت في الرواية من خلال اتجاهين، ماجاء مُصرَّح عنه بواسطة استعمال اللفظة "صمت" صراحة في ثنايا الخطاب الروائي، أو ما جاء ضمني من خلال تلك الإشارات الدالة عليه فالتأمل للعنوان "جسر للبوح وآخر للحنين" يتوقع ذلك الفيض من المعاني، لأن العنوان هو المفتاح الذي يقود صاحبه، لكنه في الوقت ذاته هو شفرة يستخدمها الراوي لجلب قرائه، فللعنوان "الصدارة" ويزر متميزا بشكله وحجمه، وهو أول لقاء بين القارئ والنص، وكأنه نقطة الافتراق حيث صار هو آخر أعمال الكاتب، وأول أعمال القارئ¹⁶، فالقارئ لهذه الرواية سرعان ما يقع في تلك المفارقة، حين يُجيب المتن الروائي ظنه، فيواجه تلك الفجوات التي تحمل أكثر من دلالة، فالعنوان وإن كان ظاهره يسمه الكلام والإفصاح، إلا أن عمقه يحتدم فيه الصراع لصمت فرضه ظرف تاريخي أو اجتماعي، أو حتى إجراء لجأت إليه الكاتبة بمهدف تحقيق المتعة.

نقرأ في بداية الرواية "كانت عيناه تنظران في كل الاتجاهات، كان تائها يبحث عن قريب أو صديق ينتظره في مدينة يبدو أنها أكلت كل الأصدقاء"¹⁷ وبهذا يتعدى العنوان الدلالة السطحية إلى معانٍ أكثر فيضا عبر مسار الرواية، يتخللها ذلك الصمت الذي تحققت من خلاله شعرية السرد، فلم يعد الكلام يتزاحم من أجل

15 عمار بشيري: "الصمت في الخطاب القصصي عند عبد الله أبو هيف" مجلة المداد، ص55. الموقع الإلكتروني للمجلات الجزائرية، www.asjp.cerist.dz

16 عبد الله الغدامي: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشرحية نظرية وتطبيق، ط6، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، 2006، ص234.

17 زهور ونيسي: جسر للبوح وآخر للحنين رواية، منشورات زرياب، الجزائر، 2007، ص5.

الإخبار بل يتعدى ذلك إلى الإمتاع، فالقارئ لهذا الشاهد يقع في فخ الضياع، ويبعث على التساؤل حول ذلك "التيه" أو عن "مدينة يبدو أنها أكلت كل الأصدقاء"، فالكاتبة تركت البداية مفتوحة، مما يدفع بالمتلقي إلى الغوص في الرواية لبحث عن إجابات حول ذلك التناقض بين عنوان الرواية وبين فاتحة المتن، فإن دَلَّ جسر للروح "على الإفصاح والإظهار، فإن المعاني وراء هذا الشاهد يتخللها الغموض والضياع، فالعنوان يحائي يظلل القارئ عن المتن المقصود ذلك أن العنوان في الأعمال الاباعية..." يتجه وجهة أخرى أقل وضوحاً، حاملاً حمولة خصبة من المجاز والرمز والصورة¹⁸ وبالتالي يصعب على القارئ تكهن الحمولة الدلالية للعنوان مما يدفعه إلى خوض مغامرة القراءة، لأن الكاتبة هنا اعتمدت على استراتيجية التشويق أو على "استراتيجية إغرائية قادرة على شد انتباه القارئ وحمله على المتابعة"¹⁹.

يسجل الصمت حضوره منذ فاتحة الرواية من خلال الشخصية الرئيسية "كمال العطار" حيث تعرض الكاتبة عدة مواضيع أهمها حب الوطن، الهجرة والاغتراب، الأنا والآخر، في شكل حديث نفسي وذكريات يسترجعها "كمال العطار" لأن الرواية كما صرحت الكاتبة بقولها "تحكي التاريخ من خلال الذكريات وقد استطعت فيها تقمص شخصية البطل الذي يعبر عنه ضمير المتكلم"²⁰ فقد غاصت الكاتبة من خلال الذكريات في التراث العريق، في الحب الأزلي، في الحرب في الحق وفي العدل، فعمكست البعد الثقافي الديني الاجتماعي التاريخي السياسي، من خلال الصمت المؤجج بإثارة العواطف والعواصف الإنسانية التي تتبناها الكاتبة بواسطة الذاكرة فالرواية عبارة عن "رحلة إلى أغوار تاريخ مدينة، رمز لكل الوطن، برقمها المقدس (سبعة): في جسورها، وقصباتها وأولياتها، وما يحمله كل ذلك وغيره من زخم تراثي وموروث شعبي، وظفته الكاتبة بإبداع ثوري، لتضيء به محطات كثيرة في حياتنا القادمة"²¹ وبهذا يتجلى الصمت عبر ثنايا الرواية من خلال ذلك الفيض من الذكريات والأشواق للشخصية الرئيسية، بالإضافة إلى عدة أشكال أخرى كالفجوات وعلامات الوقف ونقاط التتابع، هذه الأخيرة التي يكثر تواردها في النص فقد استعانت الكاتبة بنقاط التتابع منذ بداية الرواية لتخفي

18 بسام قطوس: سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، ط1، الأردن، 2001، ص49.

19 المرجع نفسه، ص60.

20 حوار أجرته الروائية زهور ونيسي مع "الشروق اليومي" 2007/03/02، منشور على الموقع الإلكتروني الشروق أونلاين www.echoroukonline.com، تاريخ الزيارة: 2022/01/15.

21 مقدمة الناشر في آخر الرواية.

وراءها دلالات عميقة، فاسحة المجال لإبداعات المتلقي، في قراءة ذلك الحكي الكامن وراء ذلك الصمت كقولها: "وكانت هذا وذاك يهودية.. نعم يهودية.. ورغم ذلك كان يراها أجمل الخلق جميعا وأعرق وأنبل الناس جميعا"²² فالصمت هنا يعبر عن استحالة الحب، فالشخصية البطل كمال العطار، يحكي الكثير عن هذا الحب لكن وراء تلك النقاط التي وظفتها الكاتبة، وهي تحمل بعدا دينيا اجتماعيا تاريخياً، فكلما دُكرت الحبيبة إلا وجاءت تلك النقاط الناطقة من خلال صمتها في مثل قولها: "يهودية ياكمال، ما الذي أصاب الدنيا، ولماذا تختارني هذه المصيبة دون الأمهات؟ إننا عين حاقدة حاسدة، والله العظيم...

يهودية؟ ولماذا لم تحب كل النساء جميعا، وتنسى هذه اليهودية؟ ولماذا لم تحب...

وتسكت ثم تضيف

تقول أنك تحبها... متى وكيف، وأين؟

وتبكي أمه كما لم تبك في يوم من الأيام...

ولا يجيب، يسكت دهرًا بعد أن نطق كفرًا، لا يجيب، وبما يجيب إنها الحقيقة التي عاشها منذ أكثر من عامين، وكتمها كجمرة قابض عليها بقلبه"²³.

فقد استعانت الروائية في هذا المشهد بأكثر من أداة للتدل على الصمت، فإلى جانب تلك النقاط توظف علامات الاستفهام والنفي، بالإضافة إلى لفظة "السكوت" التي تكررت مرتين والكلمة "كتمها" فالكاتبة تدرك جيدا متى يكون للصمت مقامه، فعندما تتأزم المشاهد السردية، يشتد وقع الصمت بمختلف أشكاله، مما قد يثير في القارئ عدة تساؤلات أمام هذا المشهد فيقتحم بذلك النص بالقراءة والتأويل بهدف استنطاق الصمت لملا تلك الفجوات، وبالتالي تتم عملية التفاعل بين القارئ والنص "بطريقة متبادلة بين ماهو صريح وضمني بين الكشف والاختفاء، إن ما هو خفي يحث القارئ على الفعل، ولكن هذا الفعل يكون مراقبا أيضا بما هو

22 الرواية، ص32.

23 الرواية، ص35.

مكشوف²⁴ وبهذا يتخلل الصمت الكلام من خلال تلك المؤشرات التي وضفتها الكاتبة، ويلزم الصمت الكلام بل يصبح هذا الأخير شرط لحدوث الصمت وتحقيق التفاعل.

يبدو أن الكاتبة تقصدت هذا الصمت حتى تتيح فرصة التفاعل وإنتاج المعنى الذي يهتدي إليه القارئ والذي من شأنه تنشيط فعل القراءة وإثراء النص وخلق المتعة التي تبدأ عندما يفسح المجال أمام القارئ على حد قول آيزر "تبدأ متعة القارئ عندما يصبح هو نفسه منتجا، أي عندما يسمح النص له بأن يأخذ ملكاته بعين الاعتبار"²⁵ وهذا تأكيد على أن الكاتبة تعمدت الصمت حين تأزم المشهد بعواطف الرفض استعانت بالصمت لتشد انتباه القارئ.

تختزن الرواية عدة بؤر للصمت تمثلت في تشتت الملفوظ وتفتت فقراته إلى جمل مغيبة وكلمات مقطوعة وحروف متناثرة كما أكدت حضورها نقاط التتابع والاستفهام وبياض الصفحات، وحتى الذكريات التي تعتبر موطن الحكيم كما يتجلى في قول الكاتبة: "هاهو يذكر اليوم وبعد أكثر من أربعين عاما، أمه وهي تعد لوازم تلك الزيارة..." وقولها "أنه يتذكر ذلك اليوم ببساطة وسهولة"²⁶ فالصمت يتجلى من خلال الزمن في الرواية، فقد غاصت الكاتبة من خلال الزمن الحاضر إلى سرد أحداث الزمن الماضي، في شكل حديث باطني نفسي، ولهذا يمكننا القول أن الرواية باعتبارها تقع من خلال استرجاع الذكريات هي بمثابة تجلٍ للصمت عبر كامل أحداثها وشخصياتها وتأزماتها وعواطفها، فيتحول الصمت إلى لوحة فنية تعكس متن الخطاب الروائي، ذلك على اعتبار أن الصمت في الخطاب السردي يعدّ "نسقا وحبكة سردية، ومبدأ جماليا، وقناعا فنيا.. فإن كان سطح النص يسمه سلوك الصمت فإن عمقه يحتدم فيه صراع صاحب عبر حوارات باطنية للراوي والشخصيات المتفاعلة معه سرديا..."²⁷

تصور لنا الكاتبة عواطف الألم والحزن والحسرة من خلال صمت الفراغ بقولها "إنها دروب تختلف عن كل أنواع الدروب التي قطعت.. أليست الاستثناءات تأكيدا للقاعدة؟

24 فولفغانغ إيزر، ص 100.

25 المرجع السابق، ص 56.

26 الرواية ص 95-98.

27 باية غيبوب: "قراءة في صخب الصمت في رواية (بحر الصمت) لباسمينه صالح" مجلة دراسات لسانية، مج 4، ع 1، مارس 2020، ص 219.

دروب السويقة هي روح المدينة، ومدينة بلا روح مدينة ميتة، مدينة بلا وجه ولا قلب ولا هوية مدينة بلا اسم سوى في حالة الهروب من الأمس واليوم والغد إلى الفراغ اللانهائي²⁸ اختارت المبدعة في هذا الشاهد الصمت من خلال الدلالات الكامنة وراء توظيفها للاستفهام والنفي لأن "كل من البياضات وأشكال النفي تضبط عملية التواصل بطرقها المختلفة الخاصة"²⁹، وحتى المعاني الخفية وراء توظيفها للفظي الموت والفراغ اللانهائي، الأمر الذي يدفع بالقارئ إلى تحليل تلك الشفرات لبناء الدلالات المحذوفة .

هاهي تستعين في موضع آخر بالصمت لتصف مكانة المرأة بقولها "بتكنم شديد واحتشام أشد، يدركون جيداً أن المرأة أمر عزيز ومقدس، مثله تماماً مثل الأرض والعرض، لذلك عندما يخطئون نجدهم يخفون خطيئتهم ويتكتمون عليها، إنهم يدركون أنهم مخطئون في هذا الأمر المقدس، وأن ما يفعلونه بإذلال المرأة وإهانتها، إنما هو جريمة إنسانية، مثلهم مثل الذي يجرم ثم يحاول أن يخفي جريمته، لا يتكلم عنها، ولا يترك من حوله يسهبون في الحديث عنها"³⁰ إن قداسة الموضوع دفع بالكاتبة إلى الاستعارة من معجم الصمت، فوظفت تلك الوحدات التي تشترك ودلالة الصمت لتعبّر عن أهمية الموضوع فاختارت الصمت المباشر من خلال تلك المفردات لتعبّر عن قداسة الموقف.

تعتمد الكاتبة على لغة الصمت فتستعير من معجمها ما يكون محمّل بدلالات عميقة فتتخطى الكثير من السرد بتبني صفة الاختصار "اختصر كمال الزمن، وفلسفة الزمن، وفلسفة الحياة كلها، وهو جالس على عتبة قبر والدته "عتيقة"، هذه المرأة التي كان عندما يراها يجد نفسه الضائعة... بل إنه يجد حياته كلها، بدءاً من طفولته الوديعه الهادئة، أليس الإنسان منا كتلة مشاعر وأحاسيس؟"³¹، تأبى الكاتبة هنا الحديث وتختصر الكثير من الكلام لتترك المشهد مفتوح أمام القارئ، لأنه محمّل بالأحاسيس والعواطف، لهذا اختارت الكاتبة الصمت لأن الكلام قد لا يمنح الموقف حقه، فتقاسمت هذه اللحظة مع القارئ ليتشارك معها في بناء تلك الأحاسيس الفياضة، خاصة إن كانت تلك المشاعر متعلقة بالمرأة الأم يتوقف الكلام ويتحرك الصمت ليقول كل شيء عن ألم فقدان والحنين.

28 الرواية، ص134.

29 فولفغانغ إيزر، ص101.

30 الرواية، ص150.

31 الرواية، ص175.

إضافة إلى صمت ذلك الحوار الباطني يتخلل هذه الذكريات صمت آخر لم ترد الكاتبة قوله فاستعاضت مكانه بنقط التتابع نحو قولها وهي تصف لحظة ذكرى وحلم وأمل، لحظة يتمنى فيها "كمال العطار" أن يبنى وطنه كأنه يبنى بيته الصغير "يعقب عبيرها خارج الأسوار... أسوار لا تحد من تغلغل نور الشمس، وألق القمر... أسوار لا تحجب الرؤية للفضاء العريض، والأفق اللامحدود... أسوار من نور وزهور وليست من حديد واسمنت... أسوار تسمح بالهواء النقي"³² تدرك الكاتبة وقع الصمت، لذلك فضلت تلك الفراغات في وصف حلم ذلك المناضل المخلص والوطني الشريف على حد تعبيرها، وبهذا فهي ترمي بصمتها إلى تحريك وطنية القارئ، بإدخاله في وصف هذا الحلم، وهي بداية حدوث التجربة الجمالية الخالصة لأن هذه الفراغات "تحدث ذلك الاضطراب في ذهن القارئ الذي يفجر نشاطه المكُون، هذا النشاط الذي لا يمكن أن يهدأ إلا بفعل إنتاج الموضوع الجمالي"³³.

تشكل تلك اللحظة التي يتعالق فيها الصمت مع مخيلة القارئ لتتولد تلك المعاني القابعة وراء الفجوات فتتحقق بذلك ردة الفعل وإنتاج اللذة أو متعة الاستقبال، لأن تلك الفراغات هي نقطة التواصل بين القارئ والنص حيث "تعمل الفراغات كنوع من المحور الذي تدور حوله مجموع العلاقة بين النص والقارئ، ومن هنا تثير بياضات النص المَبْنِيَّة عملية التصور التي يقوم بها القارئ بناء على شروط يضعها النص... فالبياضات تترك الروابط مفتوحة بين المنظورات في النص وبالتالي تحث القارئ على التنسيق بين هذه المنظورات"³⁴.

نسوق بعض الأمثلة التي استعملت فيها الكاتبة لفظة الصمت في مثل قولها:

("لم يقل شيئاً عندما فاجأه والده برغبته في أن يتزوج في حياته، بل نظر إلى أمه مستغيثاً، وهي تتأمل تقلصات وجهه، منتظرة رد فعله عند سماع الخبر، لم يقل شيئاً، نظرة أمه زادت حزنًا وإصراراً على الصمت")

"في بعض الحالات يصبح الصمت أبلغ حديث، وأقدر على رد الفعل، ماذا يفعل وماذا يقول؟"

32 الرواية، ص 207.

33 فولفغانغ إيزر، ص 107

34 المرجع نفسه، ص 101.

"يتلثم ويخرج، وكأنها لا تقول جملتها إلا له وحده، يصمت ويحمر وجهه، الوسيم، لا ينطق إلا بابتسامة خجلى"³⁵

نقارب هنا بين الصمت عند الشخصية "كمال العطار" والصمت عند الكاتبة، ونلاحظ أنه في كلتا الحالتين يمثل الملاذ أو الخلاص الذي تحتمي به الشخصية عند تأزم حالتها النفسية وخلاص الكاتبة عند تأزم الأحداث فتلجأ للصمت حتى يشاركها القارئ في تلك الأحداث وبهذا تصبح أكثر وقعاً، بل يتعدى الأمر إلى أكثر من ذلك عندما أعطت الكاتبة رأيها الصريح في الصمت واعتبرته أبلغ حديث، الأمر الذي نقرر من خلالها أن الكاتبة تدرك تماماً ما للصمت من أثر في فنيات السرد.

اعتمدت الكاتبة على الصمت كخاصية تضيفي جمالية على الخطاب السردى، فتجلى كتقنية بارزة في سرد روايتها، فلم يقتصر الصمت على تلك الأحداث التي تعبر عن الحوار الباطني فقط، بل تضمنه الزمن الحاضر، لـ"كمال العطار" وهو يكتشف مدينته الحبيبة بعد طول غياب، حيث نجد الصمت يحيم على جارتها المجاهدة أثناء لقاءها الأول به، لكي تخفي وراء سكوتها الكثير من الحكي مما يثير فضول "كمال العطار" وإلى جانبه فضول القارئ، كم يظهر في قول الكاتبة:

("وسكتت...وهي توجه نظرها إلى وجهه مستغربة الدهشة التي أكلت كل وجهه")

"وسكتت...احتار كمال، وهي تسكت فجأة"³⁶.

إن اختيار الصمت للكاتبة في هذا المقطع يثير الكثير من التساؤلات ويبحث على الدهشة والخيبة وبهذا يتحول إلى استراتيجية سرية تعتمد عليها الكاتبة لجذب القارئ ليكون كعنصر أساس في عملية السرد ويصبح له دور في عملية بناء الأحداث.

لهذا نلاحظ الصمت يشتد كلما تقدمنا من خاتمة الرواية حيث استعاضت الرواية بسيل من نقاط التتابع وانهاالت الكاتبة بفيض من علامات الاستفهام لتوسع من دلالات لغتها وتضيفي طابعا جماليا فتتنوع بذلك تقنيات الصمت كلما تنوعت المواضيع التي تناولتها الرواية فنجدها تقول:

35 الرواية، ص32-39.

36 الرواية، ص193-196.

"إنني معك، ودفاعي اليوم عن الديمقراطية لا يقل قناعة وحماسا عن دفاعك أنت ولكن..."

"الديمقراطية واحدة في كل مكان..."

"ما هذا الجفاف؟ لماذا لا يستثمر أصحاب رؤوس الأموال أموالهم في مشتلات للورود؟ ما الذي يمنعهم من ذلك؟ هل هو الربح والحسارة أم هو الجهل بالجمال؟ وفقدان الإحساس به؟ ثم ألا يمكن أن يقنع الناس بريح مادي قليل مقابل ربح جمالي؟ أكبر؟"³⁷

يشير هذا المقطع إلى جرأة الكاتبة منتظرة من خطاب الصمت أن يقدم ذلك النقد السياسي من خلال استنطاق الصامت الكامن وراء تلك الفجوات فإن كان ظاهرها صامت فإن باطنها مثقل بالمعاني.

لعل ما يحقق للصمت ذروته في هذه الرواية عندما تركت الكاتبة النهاية مفتوحة مؤججة بالتأويلات تشتعل بعواطف الحسرة والألم فجمعت بين عهد الاستعمار وعهد الاستقلال بين الشهيد والمجاهد، بين الوطن الحلم وبين الواقع المر بين خيبات ذلك لا انتظار وذلك الصراع بقولها: "ها أنا أتذكر أنني خسرت الرحيل معكم تركتموني لغربة لا هي بالجنة ولا هي بالنار، في قلعة تدعى وطن، لا هو بالسكن ولا هو بالشجن، فمن يرثي للآخر؟ وبيننا هذا الميثاق الكبير، والستون عاما ملفوقة بغبار الحياة، وخطوة صغير للبداية، ورحلة شاقة نحو نهاية، لا ينتهي فيها الحنين"³⁸ فقد انحالت الكاتبة بذلك السيل من النفي، مظلة القارئ في تلك الدلالة العميقة التي تحتمل عدة تأويلات، أليس حلم المناضل إلا الاستقلال؟ لكن يُصدم القارئ ببكاء ذلك المناضل على حلم الشهادة بدل الاستقلال الذي يعاني فيه الغربة والشوق والحنين، فيهيمن الصمت على هذا المقطع إلى درجة يمكن اعتباره البؤرة التي تنصهر فيها مختلف معاني الخطاب الروائي.

أشادت الروائية بالصمت في عدة مقاطع من الرواية لدرجة أنها قالت على لسان الشخصية الرئيسية: "ويصبح الصمت عبادة..."³⁹ وقالت في موضع آخر: "...لكن حزني اليوم لا يليق له إلا الصمت، الصمت أصدق وأبعد دلالة، إنه في بعض الحالات يساوي راحة أبدية"⁴⁰ وما هذا إلا دليل على وعي الكاتبة

37 الرواية، ص 246-247-263.

38 الرواية، ص 278.

39 الرواية، ص 63.

40 الرواية، ص 257.

بأثر دلالة الصمت وقوته في بناء جمالية الخطاب، وبتالي اعتمدته كخاصية مميزة في بناء أحداث الرواية ليعطيها تلك اللحظة التي يتعالق فيها القارئ مع الأحداث لتخلق ذلك البعد الجمالي الذي يمنح للخطاب السردى تميزه .

5. خاتمة:

يشكل الصمت في هذه الرواية أحد أهم التقنيات السردية الذي اعتمدت عليه زهور ونيسي ووظفته بطريقة يكتسب الخطاب الروائي من خلالها جمالية السرد، فتجاوز بذلك الصورة العادية إلى تلك الصورة الخلاقة التي أصبح من خلالها آلية فنية فعّالة في بناء الدلالة المفقودة، الأمر الذي يدل على براعة الكاتبة في استغلال هذه الخاصية، بطريقة تحقق التواصل والاستمرار وتخلق شعيرة الأثر ويصبح خطاب الصمت ليس عدم القدرة على النطق، بل هو القدرة على الجذب والتفاعل، فيتجاوز دائرة العجز، إلى دائرة الخلق والإبداع ويصبح بذلك خاصية فنية فعّالة.

لقد ورد في الرواية حالات عديدة للصمت لا يسعنا المقام لذكرها، إلا أن النماذج التي أوردناها تدل على عمق وعي الكاتبة بأهمية الصمت في الخطاب الروائي، فقد اعتمدته الكاتبة كقيمة فنية لها دلالتها في مكونات النص السردى، يحقق بعداً جمالياً ودلالياً لسيرورة الأحداث، كما اتخذت منه وسيلة لطرح عدة قضايا اجتماعية وسياسية وتاريخية، فانتشار تلك الفجوات عبر ثنايا الرواية ما هو إلا دليل على فطنة المبدعة وقدرتها على زعزعة كيان القارئ بواسطة تلك الشفرات، التي أدركت الكاتبة أين ومتى توظفها، لتخلق تلك الثغرة التي يطمح القارئ إلى سدها.

أما استخدام لفظة الصمت ومرادفاتهما ما هو إلا دليل على قدرات الكاتبة في استخدام حيل إبداعية تشد القارئ إلى هذه الظاهرة التي ما فتأت تتكرر عبر المتن الروائي، لتثير الانتباه إلى دلالات مفقودة، وجمالية منتشرة عبر ذلك الصمت الناطق الذي يداعب شعور القارئ في كل مرة، ولعل تحول الصمت إلى ظاهرة لها تأثيرها ما هو إلا دليل على أن المعاني لم تعد محصورة في اللغة فقط وإنما كذلك في خطاب الصمت التي قد يكون أبلغ من اللغة، ويقول ما عجزت اللغة عن قوله.

6. قائمة مصادر ومراجع البحث:

- 1- ابن منظور: لسان العرب، ج1، ط1، المطبعة الكبرى الميرية، مصر، 1300هـ.
- 2- أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أعده وفهرسه: عدنان درويش/محمد المصري، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، 1419هـ/1998م.
- 3- باية غيبوب: "قراءة في صخب الصمت في رواية (بحر الصمت) لياسمينه صالح" مجلة دراسات لسانية، مج4، ع1، مارس 2020.
- 4- بخولة بن الدين "بلاغة الصمت وأسلوب الحذف في الخطاب القرآني دراسة نصية" مجلة التراث، ع01، مج10، أبريل 2020.
- 5- بسام قطوس: سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، ط1، الأردن، 2001.
- 6- الجاحظ: البيان والتبيين، تح عبد السلام محمد هارون، ج1، دار الفكر.
- 7- الجاحظ: رسائل الجاحظ، تح عبد السلام هارون، ج1، القاهرة، مصر، 1964.
- 8- دافيد لوبروطون: الصمت لغة المعنى والوجود، ت: فريد الزاهي، ط1، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، 2019.
- 9- زهور ونيسي: جسر للبوح وآخر للحنين رواية، منشورات زرياب، الجزائر، 2007.
- 10- سنان الخفاجي: سر الفصاحة، شرحه وصححه عبد المتعال الصعيدي، مطبعة علي صبيح وأولاده، القاهرة، 1969.
- 11- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإجاز، تح محمود محمد شاكر، ط5، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2004.
- 12- عبد الله الغدامي: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشرىحية نظرية وتطبيق، ط6، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، 2006.
- 13- عمار بشيري: "الصمت في الخطاب القصصي عند عبد الله أبو هيف" مجلة المداد، ص55. الموقع الإلكتروني للمجلات الجزائرية، www.asjp.cerist.dz
- 14- فولفغانغ إيزر: فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، ت: حميد حميداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، الدار البيضاء، 1995.
- 15- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005.
- 16- كمال سعد أبو المعاطي "الوظيفة التفاعلية للصمت" مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الانسانية، مج24.
- 17- Pierre Van Den Heuvel, parole mot silence, compléments théoriques, chapitre2, librairie José corti, 1985.